دفتر الأحوال

بقلم: حسني سيد لبيب
مصر

هواية فريدة استأثر بها، شغلته وشاغلته. واستغنى بها عن مخالطة الناس.

كل ذي موهبة يلذ له عرضها على خلق الله، أما عبدالمتعال فنسيج وحده.. فلا تتعدى الهواية أنه قبل أن يسلم نفسه لسلطان النوم، يجلس إلى مكتب صغير، يدون في كشكول كبير كل ما يريد تسجيله من أحداث تلفت انتباهه، وخواطر تعنّ له، ويحلل من جانبه دوافع السلوك لبعض الأقارب والأصدقاء والجيران. كأنه جبرتي عصره. سمى الكشكول (دفتر الأحوال).. ولا يعرف بالضبط أي صنف لذلك الدفتر، أهو سيرة ذاتية لحياة عبدالمتعال؟ أم هو تأريخ لحال الزقاق الضيق الذي يعيش فيه؟ أم هو تنفيس للغضب الذي يواتيه من جراء ضغوط العمل بمصلحة حكومية؟ أم هو دفتر للشكاوى لما يلاقيه من ظلم رؤسائه، وطبائع التسلط والاستبداد؟ نعم، رؤساؤه ينغصون عليه عيشته بينا هو - في قرارة نفسه - يرى أنه مثال الموظف الكفء النزيه المخلص. كما أن الدفتر مليء بمقتطفات من الصحف اليومية، مقتطفات منوعة، تشمل الأحداث السياسية المهمة وتعليق عبدالمتعال عليها، وتشمل الحوادث والقضايا، والخواطر والحكم، كما تشمل المقتطفات فقرات من مقالات بعض الكتاب، ولا يعدم الدفتر تزيينه ببضعة أبيات شعرية أعجب بها، أو ملخصا لقصة قرأها فأصابت هوى في نفسه.

وعبدالمتعال شديد الإعجاب بأبيات قرأها فكتبها في صدر دفتره بخط كوفي جميل، وزين الصفحة وأطرها بخطوط زاهية الألوان، تقول الأبيات كما قرأناها في دفتره:

إذا شئتَ أن تَحيا سَليمًا مِنَ الأذَى
وحَظكَ مَوفورٌ وعرضك صَيّنُ
لِسَانكَ لا تَنطق بِه عَوْرةَ امرئٍ
فَكُلكَ عَورَات ولِلنَّاسِ ألسُنُ
وعَينكَ إنْ أبْدَتْ إليكَ مَسَاوئًا
فَدَعْهَا وَقُلْ يَا عَين للناسِ أعينُ
وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَنْ اعْتَدَى
وَفَارِقْ ولَكِن بَالتِي هِيَ أحسنُ

كتب عبدالمتعال غير مرة: «إن الوقت الذي أقضيه مع دفتري من أسعد الأوقات وأمتعها. فثمة أريحية وصفاء نفس، وهدوء متميز يجعلني أنسى متاعب اليوم وآلامه».. وتتناثر مثل هذه الكلمات في بعض الصفحات.

ذات مرة، جلست ابنته الوحيدة وقرأ صفحات من دفتره دون استئذان منه، استغرقت في القراءة إلى أن فوجئت به واقفا قبالتها، توترت قليلا، همّت أن تعتذر، أو تلتمس عذرا، فرحمها من كل هذا وطمأنها:

- اقرئي ما شئت، لكن حذار أن تطلعي عليه أحدا، أسمح لك أن تقرئي، لأنك قطعة من نفسي.

- هل تسمح لأمي أيضاً؟

- نعم.. لكنها لا تقرأ ولا تكتب.

- سألت هدى:

- متى اهتممت بتسجيل خواطرك؟

- بعد حصولي على الثانوية العامة، وكنت أنظر إلى ما حولي، وأتأمل وجوه الناس، وتنتابني الحيرة من أقوالهم وأفعالهم، فكرت في كتابة اليوميات، لأحداث وقعت لي، أو لغيري ممن لهم علاقة بي، وأكتب آرائي، كما ترين، أحببت أن أسلي نفسي.

شرد في البعيد. طلب من زوجته إعداد الشاي، وجلس مع ابنته، وطفق يذكرها بأحداث يوم ولادتها، منذ عشرين عاما، بحث عن (دفتر أحوال) قديم جدا، أخرجه من أحد أرفف المكتبة، ونفض عنه أتربة السنين، وأخذ يقرأ لها ما كتبه في هذا اليوم، وكان عبدالمتعال في حاجة إلى استعادة ما

حدث في ذاكرته، أكثر مما كان في حاجة إلى إطلاع هدى، وكانت متعته أن ابنته تستمع لما يقول باهتمام بالغ، وتوقف فجأة، وقال لهدى:

- إنه يوم لا ينسى، أستطيع أن أسرد كل التفاصيل من الذاكرة، فأنا لم أنجب سواك.. أنتِ زهرتي الوحيدة في بستان الحياة.

راح يذكر لها: كيف حملها بين ذراعيه بفرحة غامرة.. تحسست كفه وجهها المدور الأبيض الصافي بلون الحليب.. وطفق يقبلها وهو يحمد ربه على نعمائه. قد عانت الأم من الآلام قبل وأثناء الولادة.

واصل حديثه معها: بعد أن كبرت وصارت عروسا، واسترسل يحكي تفاصيل اليوم السعيد، ثم عاد يقرأ من الكشكول، فأدهشه ما قرأ من تفاصيل أخرى كان قد نسيها، ولذ له قراءة ما كتب، وهدى منصتة معجبة.. ومما كتب: أنه نفح القابلة أجرتها مضاعفة، وذكر في يومياته الخلاف الذي وقع بينه وزوجه حول اسم المولودة التي أراد أن يسميها (نعمة الله) واختارت زوجته (هدى) فخضع لرأيها.

تركته هدى، وانشغلت بالمسلسل التليفزيوني، ثم عادت إلى الكشكول، تقرأ ما كتب الآن:

«عبثت أميرة قلبي بأوراق الدفتر، وكنت سعيدا بهذه العبث، برغم أن الدفتر خاص بي لا أطلع عليه أحدا، لما فيه من أسرار شديدة الخصوصية، أسرار أخرى تتعلق بغيري.. ليس هناك أسرار أخفيها عن هدى».

تختلي الأم بابنتها، ولا يلذ لها حديث إلا عن الشبان الذين يتقدمون لخطبتها فترفضهم جميعاً، لا يعجبها أحد، فهذا عصبي، وذاك أصلع، وهذا جاحظ العينين، وذاك كلامه غير مريح. تعنفها مرة وتنصحها أخرى، ما من رجل يخلو من عيب، ولابد أن ترضى بواحد ممن تقدموا لخطبتها، لكن هدى مصرة على الرفض، وأبوها يتعاطف معها ولا يريد أن يفرض عليها رأياً، وشاء أن يدعها تختار بنفسها ما تحب وتهوى، وكثيرا ما يقول:

- من أصعب الأمور على نفسي، أن تعيش ابنتي في بيت زوجها مكدرة مهمومة.

قلقت الأم على ابنتها، خشيت أن يفوتها قطار الزواج، وإن كانت في سن لا يدعو لكل هذا القلق، هدى لا يتعدى عمرها عشر ربيعا، تعمل بشهادة متوسطة. إلا أن الأم عجلى كي تفرح بزفافها.

اختلى الأب - ذات مساء - بدفتره يقلب الأحداث القريبة، يقرأ كل ما يتعلق بخطاب هدى فوجد أن ابنته محقة.. فأحدهم تعدى الخمسين، والثاني تزوج مرتين، والثالث ما زال طالبا يصرف عليه أبوه، والرابع لا يعجبها شكله، قرأ بتأنٍ، وتأكد له أن الخطّاب الأربعة غير مناسبين لها، إذن لابد من التروّي والتريث جلس إلى زوجته، باسطاً الدفتر، شارحا لها أحوال الأربعة، ناصحا إياها بألا تؤنبها وتبكتها، ويختم كلامه قائلا في ارتياح:

- يوما ما، سوف يأتيها العريس المناسب.

- ومن هو العريس المناسب؟

- لا أختاره أنا، ولا تختارينه أنت. ستعرفينه حين يدق قلب هدى فرحا، ويعلو البشر وجهها من أول لقاء.

***

رجع من عمله، كعادته كل يوم، وبيده جريدة الصباح وفي طياتها أرغفة الخبز الخمسة، سائرا بخطاه الوئيدة في الشارع الضيق المؤدي إلى الزقاق. اعترضه شاب محييا إياه، معرفا بنفسه:

- أنور فهيم متولي.. أسكن في هذا المنزل..

وأشار إلى المنزل الذي يقفان عنده.

- وأعمل في هذا المحل.

وأشار إلى محل الأدوات الصحية، والواقع بنفس المنزل. عبدالمتعال يعرف المحل منذ زمن بعيد...

- إنه محل..

- أجل.. محل والدي الحاج فهيم متولي.

- أهلا وسهلاً.. تحت أمرك..

- لا يصح الحديث على قارعة الطريق. تفضل في بيتنا أو محلنا القريب.

- كما تراني.. أنا عائد لتوي من عملي، متعبا.. تفضل أنت في المساء.

- وهو كذلك.

- وبعد أن حياه، رجع إليه بخطى مترددة..

- ما الموضوع؟

- خير إن شاء الله.

أكمل عبدالمتعال طريقه إلى أن وصل إلى زقاق (سلامة). ومن حين لآخر، يحيي من يلاقيه في الطريق. وقد سيطر عليه بعض القلق لموعد اليوم. إنه ليس على علاقة متينة بوالده. كما أنه لا يعرف أنور هذا. ولا يفطن إلى مقصده. ويرد عليه صوت من داخله يناصبه العداء دائماً. ومن تعرف من أهل الحي؟ علاقتك سطحية لا تتعدى التحية والسلام العابر، وقلما جمعك مع أحد الجيران حديث طويل، أو شغلك موضوع وتباحثت معهم فيه، وآثرتَ أن تكون العلاقات من بعيد، مؤثرا

السلامة وعدم التورط معهم في مداخلات أو مشاحنات...».

أعرض عن الصوت المناوئ، ليحيي أم سالم، بائعة الحلوى لأطفال الزقاق. وقف يتحدث إليها طويلا، يسأل عن صحتها.. وهل مازال الأولاد الأشقياء يعاكسونها.. وتبادلت معه الحديث غير العادي.. وإن كانت مدهوشة لتغير حاله، فما عهدته على هذه الصورة. وكان إصرار عبدالمتعال على إطالة الحديث مع بائعة الحلوى، محاولة منه لنفس ما يدعيه الصوت المناوئ من أنه يعيش بمعزل عن الناس، أو أنه رد فعل نفسي لزيارة أنور المتوقعة اليوم، وحاجته إلى سد فجوة يراها تفصل بينه وبين عالمه الذي يعيش بالتقرب إلى أهل الحي ومصادقتهم. ترك أم سالم، لكنها لم تتركه، فشيعته بكلمات زائدة تسأل فيها عن زوجته وابنته، وتدعو لهم بالخير، ولهدى على وجه الخصوص بأن يرزقها بابن الحلال.

دخل المنزل القديم. المدخل قبو مظلم. صعد الدرج المتهالك، قاصدا شقته. حث زوجته كي تهيئ البيت بسرعة لاستقبال الضيف. حاصرته بأسئلة كثيرة. أجاب باقتضاب، فلم تفهم شيئا، ووجدها في حيرة، لكن حيرته هو أشد، وطلب منها أن تشاركه التفكير في سبب الزيارة.. بادرته بلا تردد:

- المسألة واضحة وضوح الشمس.. سيأتي خاطبا هدى.

جلس الثلاثة إلى طاولة الغداء. لم يشأ إثارة الموضوع. أثر الصمت، تقطعه كلمات متناثرة على شفاه الثلاثة، كلمات متقطعة لا يجمعها رباط واحد.

وبعد الغداء، اختلى بنفسه وطفق يبحث في صفحات قديمة من (دفتر الأحوال) عن كل ما يتعلق بالحاج فهيم متولي وابنه أنور.

تفحص الدفتر في عجالة. الدفتر مجموعة كشاكيل تراكمت عليها أتربة السنين. أخذ ينفض القليل من التراب، ويبحث عن سطور كتبها هنا وهناك عن عائلة فهيم متولي.. ونقل السطور المبعثرة في أماكن متفرقة، ليصنع منها معلومة.

... الحاج فهيم، تقاذفته أمواج الحياة وهو صغير السن. عاش في بيت أمه المطلقة كالغريب، بعد زواجها من رجل فظ غريب الأطوار. عمل صبي حلاق. عامله الحلاق بقسوة، وكان يلذ له ضربه على قفاه، بمناسبة وبدون مناسبة، مرة يضربه لخطأ عارض وقع فيه، ومرة أخرى على سبيل المداعبة! وفي إحدى المرات ضربه على رأسه بالمقص الكبير، فترك المحل وهو يحمد ربه على نجاته من بين يديه الطائشتين. ثم عمل عند جزار، فانزعج من حركة الساطور السريعة. تساءل بينه وبين نفسه: ماذا لو أخطأ الساطور وأصابه؟ فهرب من المحل هائما على وجهه، فالتقطه رجل يصلح مواقد الكيروسين.

ورأى أن لهب الموقد إذا ما ارتفعت ألسنته أو انخفضت، حسب سلامة الجهاز أرحم بكثير من مقص الحلاق وساطور الجزار، وفجأة غيَّر الرجل صناعته فاشتغل بأعمال السباكة، ولازمه فهيم كظله. لم يكن على دراية كافية، لكنه اجتهد في تعلُّمها وتعلَّمَها منه فهيم الصبي. نجح الصبي وفاق معلمه. فاستقل بعمله سباكا يشار له بالبنان. لكن ربح اليوم كان يصرفه كله في التدخين وأكل الكباب والكفتة والجلوس على المقهى مع رفاقه. عاكس بنات الحي كلهن. لم تسلم واحدة من مضايقاته...

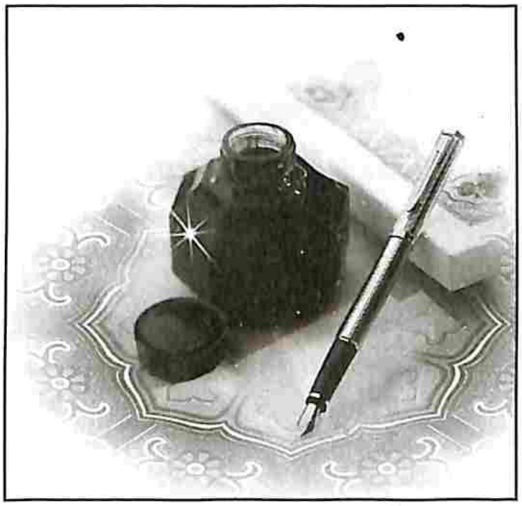

والمعلومة التي صاغها عبدالمتعال من واقع دفتره لا تخلو من اجتهاده الشخصي واستنتاجه، لكنها لا تخلو من قدر كبير من الصحة. وبعد أن صاغ السطور السابقة، اضطرب القلم في يده، حين وقعت عيناه على سطور غريبة، فالشاب فهيم، عاكس زوجته فتحية وهي بنت، ضمن مَنْ عاكس من بنات حواء!.

نهض عن كرسيه، وذرع الغرفة جيئة وذهابا، وبركان غضب يشعل الحرائق في جوارحه. عاد يقرأ سطورا أخرى يقول فيها:

«لم أكن أعلم أن فهيم تمنى فتحية زوجا له. علمتُ ذلك بعد الزفاف، بعده بشهور طويلة من فتحية نفسها، وهي تفخر وتزهو بأن كثيرا من شبان الحي تمنوها زوجا، وذكرت فهيم ضمن من ذكرت».

هدأ قليلاً. حدث نفسه بأنها سطور قديمة ربما لا تعلق في ذاكرة فهيم الآن، مثلما هي لا تعلق بذاكرة زوجه، أو ربما هي لا تجد الآن، وقد تقدمت بها السن، حاجة للفخر والزهو بأيام الشباب. لكن دفتر الأحوال باق بصفحاته القديمة والجديدة، ليتك ما كتبت يا عبدالمتعال كلمة واحدة في الدفتر، إنه فيما يبدو صار مصدر قلق وينغص عليك حياتك.

شرب قهوته، وهو يعالج توتره ويعود له الهدوء، فيواصل تتبعه لسيرة الحاج فهيم، الذي تغير بعد زواجه من إحدى فتيات الحي. يبدو أن زوجه نازلي أحدثت تغييرا للأفضل، فعزف عن اللهو البريء وغير البريء، وادخر ما يكسب، حتى فتح الله عليه باب الرزق الوفير، فافتتح محلا للأدوات الصحية، واستعان بسباكين في سن الشباب. ومع تقدم سنه، عزف عن ممارسة المهنة، مكتفيا بما يكسب من التجارة. أنجبت نازلي أنور وسعاد، وعددا آخر من الأولاد لا يعرف عبدالمتعال أسماءهم. تملكته الحيرة، فهو لا يعرف متى ذهب فهيم للحج؟ أم أن لقب (الحاج) خلعه على نفسه؟ ربما أهدته له الناس توقيرا واحتراما. فلافتة المحل التي يطالعها تقول: «الفهيم للأدوات الصحية.. إدارة الحاج فهيم متولي وأولاده».

أغلق دفاتره، مكتفيا بما قرأ، استلقى على الفراش ملتمسا الراحة ولو لبضع دقائق، فلم يتبق على موعد الزيارة سوى نصف الساعة.

كانت زيارة ودية. لكنها عنده ذات معنى مغاير. قد أصابه ضيق، فأخذ يزفر من صدره. يزيح عنه هما ثقيلا، تلكأ في غرفته غير راغب في مجالسة ضيوفه. وزوجته كالقدْر الذي يغلي ماؤه. تكتم ما بصدرها، وتصطنع ابتسامة ثقيلة، تداري به ما ابتلاها به الله من زوج لا يحسن استقبال ضيوفه. وأرجعت الانطواء والعزلة اللتين يعيشانها إلى طبعه الغريب العجيب، مما جعل الناس تتحاشاهم. لكن عبدالمتعال يلحظ اهتمام فتحية الزائد وابتسامتها العريضة، فيزداد غيظه ويحدث نفسه: «حقا، تذكرت أيام زمان، واهتمام فهيم بها».. ثم يفيق لواقعه، حين يسمع وقع أقدام فتحية، تقترب من غرفته، فهم بالخروج سريعا، وظل على تقطيبة وجهه دون أن يدري أنه جهم الوجه. انتهرته قائلة:

– يا رجل.. انظر لوجهك في المرآة.. أهذه خلقة تقابل بها ضيوفك؟

نكص على عقبيه، فرحا بتعطل قليل أجازته له فتحية، ورغب هو فيه. واجه المرآة وهندم ملابسه، وحاول أن يزيل التقطيبة والتكشيرة عن وجهه، فلم يفلح. واستقر به الرأي في النهاية إلى أنه خُلِق بهذه السحنة. دخلت هدى، فطلب رأيها في شكله وملابسه. قالت تمازحه:

– قمر منور..

فابتسم..

ضحكت هدى، تهللت أساريرها بالبشر..

– انظر إلى المرآة. قد نجحت فيما فشلت فيه أمي.

التقطت أمها الكلمات. وقالت في ضيق:

– ناصحة كأبيك.

ثم انصرفت. همس لهدى:

– ما رأيك في الشخص الذي جاء يخطبك؟

– الرأي لك. أنا لا أعرف الشخص، ولستُ براغبة في زواج الآن.

ارتاح لكلماتها، فهو غير راغب في تزويجها منه. ووجد أنه لا حرج الآن من مشاركة ضيوفه أطراف الحديث. ولج غرفة الجلوس محييا.. سلم على الحاج فهيم، غريمه، وابنه أنور، وزوجه.. وطفق يغدق على الجالسين عبارات التحية وواجبات الترحيب.

واحتفت بهم زوجه، بتقديم العصائر، وأطباق الحلوى، والمثلجات، ثم طوّفت بأقداح الشاي... تشعبت بهم الأحاديث في مواضيع شتى. وكان الحاج فهيم لسنا فطنا، وأكثرهم كلاما ومن بين ما قال التقطت أذن عبدالمتعال هذه الكلمات:

– ألسيت حرمك من عائلة كريمة. أعرفها منذ كانت طفلة.

ضحكت زوجه ولم تعلق. بينا جاهد عبدالمتعال ليحافظ على توازنه، ويعالج توتره، وإن كان يود أن يسدد عدة لكمات في صدره، بقبضة يده الضعيفة المرتعشة، التي ما تعودت على اللكم من قبل. حرص على أن يطبق شفتيه، حتى لا ينفلت لسانه بكلمات لن تعجب أحدا.

واسترسل الحاج فهيم يروي ذكريات صباه، معجبا بشقاوته أيام زمان. بينما أعيا التفكير عبدالمتعال باحثا في جعبته عن ذكريات تخصه، تكون فيها من الطرافة والدعابة ما يجعله ندا للحاج فهيم، لكنه فشل في النبس بكلمة واحدة. ذلك أنه غير لسن، وهو يعلم ذلك جيدا، ويعلم عن نفسه أيضا أن كل ما يريد أن يقول يكتبه في دفتر الأحوال، حين يختلي بنفسه، ويجد متعته الحقيقية في الإمساك بالقلم وتدوين كل شيء، مكتفيا بذلك، معرضا عن مشافهة الناس بما

يكتب. إنه نموذج للكاتب المصري القديم الجالس ليدون على الورق. إنه لا يقدر على مجاراة الحاج فهيم في أحاديثه، لكنه في المقابل يبزه في الإمساك بالقلم. وأخذ يحدث نفسه: «هناك فرق بين الثرثرة غير المجدية، والكتابة الواعية المفيدة»... وانطوى على صمته، يجترح من صدره آلاما دفينة. وود لو أتى بدفتره، ليقرأ عليهم بعضا من الطرائف والمُلح والمداعبات. لكنه لا يقدر على فعل شيء. ذلك أنه محاصر بأحاديث كثيرة، لا فاصل بينها، ويرويها فهيم، بلا توقف، كأنه يخشى أن يصمت هنيهة، ولو ليتنفس، فيضيع منه تتابع الكلام. لذا ظل يلوك الكلام ويمضغه مضغا، والكل منصت، والزوج المضياف، تزرع بسمة عريضة على شفتيها، والزوج الضيفة تتزيا بالهدوء، وهي تسمع كلام زوجها الذي اعتادت عليه. وهدى معجبة بنفسها، ملكة متوجة على العرش!. قد أتاها كثير من الخطّاب تاهت مزهوة بجمالها وأنوثتها، تصنّعت الدلال. وزادها أبوها دلالا وتيها، بحبه وطيبة قلبه، وحرصه على تلبية طلباتها دون مناقشة.

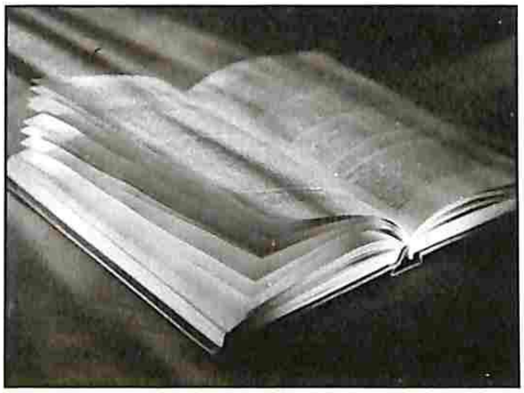

ولم يتنفس عبدالمتعال الصعداء إلا بعد استئذان الثلاثة، واعدا إياهم بأن يرد الزيارة قريبا. جلس إلى مكتبه يدون في دفتره وقائع الزيارة، عارضا وجهة نظره في كل كبيرة وصغيرة، ومن أهم ما كتب: «لست براغب في أن تربطني بالحاج فهيم صلة نسب، أو صداقة، أو أي صلة، والأسباب معروفة لا تخفى على الفطن اللبيب».

تصدع بيت الأسرة بسبب هذه الزيارة. انقسم الثلاثة إلى حزبين: الأب وابنته في حزب، والأم في حزب ثان. يرى الأب أن أنور لا يناسب هدى، وأنه يرفضه حتى لو كان الرجل الوحيد الذي يتقدم لابنته. وترى الأم أنه أنسب شاب. انحازت هدى لأبيها، ولم تعلن سببا واحدا للرفض، ولما ضيقت الأم عليها الخناق، قالت:

- أرفض الزواج من أي شاب لمجرد الزواج. وليس بيني وبين أنور ما يحببني فيه.

تزفر الأم زفرات ضيق، وتقول محتدة:

- أنت فيلسوفة، كأبيك.

لعبدالمتعال أسباب جوهرية للرفض، وإن لم يصرح بها. ذلك أن الحاج فهيم لم يراع مشاعره، وأخذ يروي حكايات تافهة عن أيام صباه، مع زوجه أم هدى، وكان لابد أن يحترم مشاعره ومشاعر زوجه ربة البيت، شرد بفكره، ووجد أن إتمام زواج كهذا، من شأنه تقوية ارتباط فهيم بزوجه. تردد في كتابة أحاسيسه هذه، ثم اندفع يكتبها في نوبة شجاعة واتته، وكان صدره يتمزق ألما. ولما باح بها لزوجه احتدت وتراشقت معه بألفاظ آلمته، ورد عليها بألفاظ آلمتها. جاهدت هدى لتهدئ الثورة التي اشتعلت فجأة، وكان من الصعب أن ترضي الاثنين. إن تمسكت بالرفض، غضبت أمها، وإن غيرت رأيها إرضاءً لأمها. غضب الأب. انتابتها حيرة. وطفق الأبوان يتراشقان بالألفاظ ويتعاركان بها ليل نهار، واسودت المرئيات أمامهما، جمعت الأم ملابسها في حقيبة صغيرة، وتركت البيت، لتعيش مع أمها المسنة، ترعاها وتعودها في مرضها المزمن. وعاش عبدالمتعال يجتر ألم الفراق. تحاوره هدى، فيحيلها إلى ما كتبه في دفتره.

- الدفتر لا يكذب يا هدى. في الدفتر أحداث ووقائع تجعلني أرفض الارتباط به بصلة ما. ألم تلاحظي تعليقاته في زيارته الوحيدة؟

حثته كي يزور أمها. فوافق ليطمئن على صحة حماته. ذهب الاثنان، جلسا قليلا، وحرصت زوجته ألا تشير إلى خلافهما من قريب أو بعيد. حرصا على صحة الأم المسنة. استحسن ذلك. ورأى أن تقتصر الزيارة على السؤال عن المريضة، وفرحت حماته بلطفه وأدبه، واستأذنته كي تبقى أم هدى إلى جانبها أياماً قليلة، فوافق.. ثم عادت واستدركت ما فاتها وطلبت منه أن يبيت هو الآخر عندها، وتبيت هدى أيضاً، فتتبدد وحشة البيت، لكنه تحجج بعمله وانصرف وابنته.

عاود عبدالمتعال ألمه الغائر.

وزاد الطين بلة، ذلك الاستدعاء الذي أتاه من قسم الشرطة. وعرف ما بُيِّت له بليل. فأنور الأرعن قد حرر محضراً ادعى فيه اعتداءه عليه في بيته، وأتى بشهود لا يعرفهم. نفى التهمة التي لم تحدث. نفى الادعاء الملفق. لكن الخسيس أتى بشهادة مرضية من مستشفى عام ليثبت ما به

من إصابة. واجه وكيل النيابة بالاتهام ثم أفرج عنه بضمان محل إقامته. نصحه المقربون أن يبحث عن محام، لأن التهمة جنحة تعرضه لعقوبة السجن، ودلوه على محام.

شرح للمحامي علاقته بالشاب وأبيه، وأعطى المحامي معلومات عن أسرة الخصم.

علمت زوجه بالمحنة التي يمر بها، فانخلع فؤادها، وتركت أمها المريضة المسنة، وعادت إلى بيتها تشد أزر زوجها، متناسية ما كانت عليه من غضب قالت:

– لم أكن أعرف أنه وضيع.. عندك حق..

عاشت الأسرة الصغيرة في حزن مقيم، لا يفارقهم ليل نهار، عاش الثلاثة في توتر وألم دفين. وأدى توتر هدى إلى ذهابها – دون علم أبويها – إلى الحاج فهيم، تؤنبه على مكيدة ابنه، وأكدت له أنها كرهته..

– ابني مظلوم. فعل ذلك كي يتزوجك. إنه يحبك..

– وأنا أكرهه..

– إن وافقتِ.. تنتهي القضية..

– كيف؟

– سيقدم تنازلا عن القضية.

– على أي أساس؟

– على أساس أن تصالحا تم بيننا.

– كيف أكون زوجا لرجل يلفق التهم بالباطل؟

– لا تعقدي الأمور يا هدى.

زفرت زفرات ضيق واحتقار. تركته عائدة إلى البيت لا تكلم أحداً، وأغلقت عليها الغرفة، مستسلمة لبكاء مرير. وحين استردت هدوءها، فكرت جديا في الزواج من أنور، من هذا الخسيس الوضيع. أعلنت ذلك لأمها، فنهرتها..

– لن يوافق..

– وأنت؟

– غير موافقة طبعا.

– طبعا، غير موافقة..

– لأجل خاطر أبي؟

– لأجل كرامة أبيك، لن أوافق..

– وإذا وافق أبي؟

– لن يوافق أبوك، إنه صامد في محنته، صخرة صلدة لا تلين ولا تنكسر في وجه المحن، ويرى أنه ابتلاء من الله لعبده المؤمن.

طفرت الدموع من عينيها، فأبكت الأم معها.

وانقطع عبدالمتعال للصلاة وقراءة القرآن، ولسانه يردد ليل نهار: «حسبي الله ونعم الوكيل».

ذات ليلة، جلس بمفرده، جامعا دفاتره، واضعا إياها على منضدة صغيرة، وقرأ بعناية كل ما يتعلق بخصمه، ونشأة أسرته غير السوية، واجتهد في جمع سطور من هنا وهناك، وأعاد نسخها في أوراق منفصلة، وذهب بها إلى محاميه ليطلعه عليها. طلب منه قراءة الأوراق جيدا. إنها تدعم موقفه. لابد للقاضي أن يدقق في ماضي الأسرة، كي يعرف الحقيقة. ولا يقتصر فهمه للقضية على أنها محضر إصابة في واقعة ضرب، وشهادة مرضية، وشهود زور مأجورين.. أوراق القضية ملفقة، أما أوراقه فلا تكذب، إنها من دفتره الخاص.. أوراقه تسرد وقائع وأحداث كتبت بأمانة وصدق، ليس وراءها من غرض سوى جلاء الحقيقة. وإذا ما جمعت الأوراق بترتيبها الزمني، تتضح الأحقاد الدفينة ونوازع الشر لدى الابن الأرعن وأبيه المستهتر.

وحين سأله المحامي عن مصدر المعلومات، انبسطت أريحيته، وطفق يحدثه عن دفتر الأحوال، الذي يدون فيه كل شيء، منذ سنوات طويلة، واستمر الحديث عما خطه اليراع في أربعين سنة، ربما أكثر.. ورأى في الأوراق التي بين يديه دليل إدانة للأسرة كلها. فالنشأة غير السوية، فعلت فعلها في الأب وابنه، ومن هم على شاكلتهما، فكان الاستهتار، والاستهانة والاستخفاف بمشاعر غيرهم.. وكانت الأحقاد التي دفعت الابن المأفون إلى تلفيق تهمة..

تناول المحامي الأوراق دون أن يكاشفه بأنه لن يعتمد عليها في دفاع، فقد وجد موكله شديد الانفعال، فأراد أن يهدئ ثائره، وحين همّ بالاستئذان، قال المحامي:

– لو تصالحتما، تحسن الوضع لصالحك.

ثار..

– لا تصالح..

أطلقها مدوية دون تردد. فصمت المحامي قليلا، فاندفع مستطردا:

– يا أستاذ، تعلم جيدا أنه لا توجد جريمة كاملة. حتماً سينكشف التزوير والتلفيق.

نظرت القضية في عدة جلسات، استغرقت عاما ونصف، حكم بعدها بإيقاف التنفيذ، وأقنعه المحامي، بعد جهد جهيد، أن الحكم يعني البراءة، فاستراح، وأرجع الفضل في هذا إلى الأوراق التي نسخها من دفتره، وأعانت المحامي في دفاعه، لكن المحامي لم يستعن بها، ولم يقرأها، وإنما رتب دفاعه بطريقته الخاصة، ولم يصرح له بذلك، بل تركه يعتقد فيما يرى.. لهذا خلت يوميات عبدالمتعال – لأول مرة – من ذكر الحقيقة، وكيف له أن يذكرها، وهو متأكد من أوراقه التي ظن أنها أفادت المحامي. كيف يعرف أنه في هذه الواقعة لا يكتب الحقيقة، وهو يرى أنها الحقيقة!

وانكب يكتب في دفتره، عن القضية التي كان فيها متهما ومحاميا في وقت واحد!